

الأديب و المُفكّر الرَّاحِل رَمَضانَ عَبدِ الرَّحمنِ لَأوَنَد

خاطرة جريدة المساء

-10-

ليس أدعى من الخيبة والفشل من أن يفصل الفكر النظري عن العمل.. فالذين حقّقوا أعظم المنجزات في التاريخ هم الذين استطاعوا أن يجعلوا من أفكارهم قوة قادرة على تحريك الناس وتعبئة قدراتهم وتغيير مناهج حياتهم. أما الذين يفكرون وهم في صوامع معزولة عن مشكلات الناس اليومية وعن همومهم التي تسببها متاعب الحياة، فهؤلاء هم الذين نطلق عليهم اسم الفلاسفة.. والواقع أنّ الفيلسوف قد يدهش من يستمع إليه وهو يفكر بصوت مرتفع فيثير الإعجاب ولكن أفكاره المدهشة المعجبة تبقى نظريات تصلح للرياضة الفكرية النظرية في المجالس والندوات ثم تبقى عاجزة عن مواجهة الوقائع اليومية العملية ما لم تكن حلولها نابعة من هذه الوقائع. وقد يتحدّث بعض الناس عن حكمة الحكماء الذين ينصرفون عن غيرهم إلى أنفسهم يعبدون الله أو يتأملون في أسرار الطبيعة والخلق ثم يسجلون ما يخطر ببالهم من أفكار وحكم.. وقد يعجب الكثيرون بالكلمات التي يلقيها هؤلاء الذين نطلق عليهم صفات التصوّف أو الرهبانية أو الحكمة، لكنّ هذه الحكمة تبقى عاجزة عن تحريك الهمم وعن التعامل مع الواقع الإنساني لأنها أشدّ صلة بالخيال والمثل العليا التي تقبل التطبيق العملي. والجدير بالذكر أنّ الأفكار والتعاليم الدينية تمارس تأثيرها القيادي ما دامت متجاوبة مع الفطرة الإنسانية موصولة بالتجارب اليومية، إنّ في وسعها أن تحرك الناس وأن تقنعهم بصواب توحيتها ما دام أنّ هذا التوجيه متفق مع القوانين الثابتة والفطرة العميقة التي فرضتها العناية الإلهية.

ومن هنا يتفاوت دور الأديان في تحريك النفوس وفي صنع الحياة اليومية، فالذي يستجيب لمطالب الفطرة ويحقق كل الغرائز التي وضعتها الذات الإلهية مع تهذيبها وصقلتها هو الدين القادر على صنع مجتمع وبناء أمة وصوغ قوانين وتشريعات صالحة للحياة اليومية.

وعندما نراقب القوى السياسية والفاعليات الاجتماعية في أي وطن من الأوطان، يتبين لنا أنّ القادة الحقيقيين الذين يمارسون تأثيرهم العميق في النفوس ويجمعون الجماهير في صف واحد هم الذين يشاركون الناس في همومهم ويعيشون قريبين منهم ويحدثونهم باللغة التي يفهموها، ثم يتفاوت هؤلاء القادة في خصائصهم وصفاتهم الخلقية،

فإذا كان لهم من وعي الضمير وصدق الطويّة ما يجعل تصرفاتهم وآرائهم نظيفة مستقيمة فإنّ تأثيرهم في النفوس يزداد نظافة واستقامة.

إنّ المفكر الحقيقي هو الذي يطرح آراء ويقدم مشروعاته على الصورة التي تتفق مع الضرورة في الوقت نفسه الذي يعمل فيه على تهذيب النفوس وتعويدها على الإنصياح للتشريعات التي توفر للجميع فرصاً كافية ومتساوية للعمل والتقدم والتعاون.

وإذا كان مجتمعنا العربي حتى اليوم لا يزال يعاني المتاعب بسبب عجز مفكره عن التعامل مع الواقع فذلك لأنّ أكثر هؤلاء المفكرين يحدثون الناس بلغة غير مفهومة ويطرحون حلولاً وأفكاراً لا تنبع من حاجات الناس ضرورتهم اليومية.

يكفي أن نلقي نظرة سريعة على تراجم الرجال الذين حققوا إصلاحاً وصنعوا تغييرات المجتمع لنستبين أنّهم قد فكّروا دائماً بعد أن شاركوا الناس في همومهم واكتشفوا مواطن القوة والضعف في نفوسهم وعرفوا حاجاتهم الحقيقية.

وخلاصة القول: إنّ أمتنا في حاجة إلى هذا النوع من الرجال المفكرين العمليين لا إلى أصحاب النظريات المعزولة عن هموم المجتمع ومطالبه الضرورية.